سلسلة لباب التزكية (٥)
هدي السلف الصالح في التربية
وسائل عملية

أول التربية

يقول ابن تيمية رحمه الله: "فطاعة الله ورسوله قطب السعادة التي عليه تدور، ومستقر النجاة الذي عنه لا تحور"

بقلم فضيلة الشيخ
د. طالب بن عمر بن حيدرة الكثيري
رئيس المجلس العلمي للإفتاء برابطة أهل الحديث باليمن

\

أول

التـــربيـة

بقلم فضيلة الشيخ

د . طالب بن عمر بن حيدرة الكثيري

أول التربية

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلامًا على عبده الذي اصطفى، وعلى آله وصحبه وخلفائه أهل الوفا، وعلى من سار على نهجهم فاتبع واقتفى، أما بعد :

مقدمة عن الناظم:

هو الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السِعدي رحمه الله، ولد في القصيم سنة ١٣٠٧هـ، وتربى يتيم الأبوين، وحفظ القرآن وعمره إحدى عشرة سنة، وأخذ العلم عن علماء بلده، حتى صار مرجع التدريس في بلده، من مؤلفاته: تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن، توفي سنة ١٣٧٦هـ .

مقدمة عن النظم:

يرشدنا الناظم رحمه الله تعالى في هذه المنظومة إلى طريق السعادة الحقيقية، والسعادة الحقيقية الأبدية ما هي إلا بلزوم عتبة العبودية؛ أن يسعد العبد بقربه من مولاه ومحبته له، وبطاعته واتباعه لرسوله ﷺ.

- يقول ابن تيمية رحمه الله: "فطاعة الله ورسوله قطب السعادة التي عليه تدور، ومستقر النجاة الذي عنه لا تحور".[1]
- وهؤلاء الذين سعدوا في الدنيا بطاعة الله ورسوله ﷺ هم الذين يسعدون يوم القيامة برحمة الله وجنته، قال تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ }؛[2] لذا قال رحمه الله تعالى :

١- سَعِدَ الَّذِينَ تَجَنّبُوا سُبُلَ الرَّدَى وَتَيَمَّمُوا لِمَنَازِلِ الرِّضْوَانِ

بيّن الناظم رحمه الله في هذه الأبيات عشرين مقامًا من مقامات السعداء، أولها: أن يجتهد العبد في الترقي في منازل الإيمان ودرجات العبودية؛ كما يجتهد في الحذر من التدلي في مواضع السخط وأسباب العذاب.

---

(١) مجموع الفتاوى، (٤/١) .

(٢) سورة هود/١٠٨ .

- يقول الحق سبحانه: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}،(٣) ويعلق ابن تيمية رحمه الله، فيقول: "وبمجموع هذين الوصفين علق السعادة".(٤)
- وجاء في حديث أنس رضي الله عنه المتفق عليه ما يؤكد هذه الحقيقة، قال: قال رسول الله ﷺ: " ثلاثٌ من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبدًا لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار" .(٥)
- وسبل الردى التي أشار إليها الناظم تشمل: الكفر، والنفاق، والبدعة، والمعصية، وسوء الخلق، والغفلة؛ والحذر منها إنما يتم بأمرين:

الأول: إدراك هذه المهاوي، ومعرفة خطرها وضررها في الدنيا والآخرة، وإنما يتحقق ذلك بكمال العلم .

والثاني: الاجتهاد في تجنبها، وتجنب أسبابها أو الاقتراب منها.

وكلما كان العبد أكمل إيمانًا وتوحيدًا كلما كان أبعد عن كل شهوة وشبهة، يقول ابن القيم رحمه الله: " وكلما عظم نور هذه الكلمة (أي كلمة التوحيد: لا إله إلا الله) واشتد أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته، حتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة ولا ذنبًا إلا أحرقه، وهذا حال الصادق في توحيده الذي لم يشرك بالله شيئًا، فأيّ ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها، فسماء إيمانه قد حرست بالنجوم من كل سارق لحسناته" .(٦)

- وأما منازل الرضوان: فتشمل كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال، ويأتي في كلام الناظم بيان أعظمها .

٢- فَهُمُ الَّذِينَ أَخلَصُوا فِي مَشيِهِم مُتَشَرِّعِينَ بِشِرعَةِ الإِيمَانِ

---

(٣) سورة النساء/١٢٥ .
(٤) مجموع الفتاوى، (٢٦١/٧) .
(٥) أخرجه البخاري (١٠/١)، ومسلم (٤٨/١) .
(٦) مدارج السالكين، (٣٣٠/١) .

المقام الثاني من مقامات السعادة: إخلاص العمل لله، وإسلام الوجه له ابتغاء مرضاته، وبالإخلاص يكون الخلاص.

- قال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}.(٧)
- وعند النسائي بسند جيد: قال النبي ﷺ: " إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغي به وجهه".(٨)
- ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله، فيغفر الله به كبائر"،(٩) ثم ذكر حديث صاحب البطاقة .

واعلم أن الشرك في الإرادات والنيات بحر لا ساحل له، قلّ من ينجو منه، وإذا أردت أخي الكريم الإخلاص فعليك بأمرين:

الأول: أن تعظم الله عز وجل، وتثني عليه؛ حتى لا يتعاظم مع الله في قلبك أحد من الخلق، فالإخلاص نسيان النظر للخلق بدوام النظر للخالق، يوضح هذا ابن القيم رحمه الله فيقول: "فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص, فأقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس, وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة ... أما ذبح الطمع فيسهله عليك يقينك أنه ليس شيء يطمع فيه إلا هو بيد الله وحده, لا يملكه غيره, ولا يؤتي العبد منه شيئًا سواه، وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين، ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده".(١٠)

والثاني: أن تجعل لك خفايا أعمال؛ لا تُظهرها لعين ولا تُسمعها أذن، فالمخلص من لا يحب أن يطلع الناس على مثاقيل الذر من عمله، ولو ذهبت كل محبة له في صدور الخلق، وكلما عظمت وكثرت أعمال السر كلما كان أقوى في إخلاصك .

---

(٧) سورة البينة/٥ .
(٨) أخرجه في سننه (٢٥/٦) .
(٩) منهاج السنة النبوية، (١٣٥/٦) .
(١٠) الفوائد، ص(١٤٩) .

والمقام الثالث: مقام التمسك بشرع الله، واتباع رسول الله ﷺ، فبقدر الاتباع يظهر الصدق في المحبة.

- قال تعالى في آية المحنة واختبار صدق المحبة: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.(١١)
- وفي المقابل يقول نبينا ﷺ:" من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"، متفق عليه.(١٢)
- قال ابن القيم رحمه الله: "أقرب الوسائل إلى الله: ملازمة السنة والوقوف معها في الظاهر والباطن، ودوام الافتقار إلى الله، وإرادة وجهه وحده بالأقوال والأفعال، وما وصل أحد إلى الله إلا من هذه الثلاثة، وما انقطع عنه أحد إلا بانقطاعه عنها أو عن أحدها"،(١٣) وإنما يتحقق الاتباع الصادق للرسول ﷺ بتحقق أمرين:

الأول: أن يحرص العبد ما استطاع على تعلم سنة النبي عليه الصلاة والسلام في كل شؤونه وأحواله، وأن يأخذ نفسه بالعمل بها، والسير عليها .

والثاني: أن يتخلص من هواه، وقيود عاداته وعادات مجتمعه؛ فلا يقبل أمرًا مهما صغر إلا بشاهدي عدل من الكتاب والسنة؛ فيكون حب الرسول واتباعه أحب إليه من نفسه، وولده، ووالده، والناس أجمعين .

(١١) سورة آل عمران/٣١ .
(١٢) أخرجه البخاري، (٢٤١/٣)، ومسلم، (١٣٢/٥) .
(١٣) الفوائد، ص(١٠٨) .

٣- وَهُمُ الَّذينَ بَنَــوا مَنَــازِلَ سَيرِهِم بَينَ الرَّجَــا والخَــوفِ للديَّــانِ

المقام الرابع والخامس: أن يسير العبد إلى الله بجناحي الرجاء والخوف، فالرجاء يدفعه للسير ويحثه، والخوف يحوطه ويمنعه عن الخروج عن جادة السبيل.

- فمدار العبادة على فعل الأوامر وترك النواهي، وفعل الأوامر ينتج عن رجاء غالبًا، وترك النواهي ينتج عن خوف غالبًا، وباجتماعها تتحقق العبودية الحقة.
- يقول تعالى واصفًا أنبيائه ورسله: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}.(١٤)
- وفي حديث أنس أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: "كيف تجدك ؟"، قال: أرجو الله يا رسول الله، وأخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: "لا يجتمعان (يعني الخوف والرجاء) في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو، وأمنه من الذي يخاف".(١٥)

وإنما يصدق على العبد هذان الوصفان إذا صدق في اثنتين:

الأولى: أن يملأ سمعه وبصره وقلبه بالنظر فيما اتصف به الله تعالى من صفات الجمال؛ كالعفو والكرم والإحسان، وينظر لشواهد هذا في ملكوت الله تعالى، وأن يُذكّر نفسه بما أعدّه الله لعباده في جنات النعيم، وما ذكره رسوله ﷺ من أجور وفضائل الأعمال؛ وبهذا يعظم رجاؤه في خالقه، ويدفعه هذا الرجاء إلى المسارعة في الأعمال الصالحة، قال ابن القيم رحمه الله "كلما حسن ظنه (أي العبد) حسن عمله".(١٦)

والثانية: أن يملأ سمعه وبصره وقلبه بالنظر فيما اتصف به الله تعالى من صفات الجلال؛ كالعزة والغضب والانتقام من المجرمين، ثم ينظر لشواهد ذلك في ملكوت الله تعالى، وفي القرآن الكريم، وأن يستشعر تقصيره وتفريطه في جنب الله، وأن يُذكّر نفسه بما أعده الله للمكذبين في دركات الجحيم، وما ذُكر في النصوص من عقوبات المعاصي والآثام، فيدفعه

(١٤) سورة الأنبياء/٩٠ .
(١٥) أخرجه الترمذي، (٣١١/٣)، وابن ماجه، (٣٢٨/٥) .
(١٦) المصدر السابق، ص(٢٨) .

ذلك إلى الحذر من معاصي الله واجتنابها؛ فمن كان بالله أعرف كان منه أخوف، قال النبي ﷺ: "والله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية"، متفق عليه.(١٧)

٤- وهَمُ الَّذِينَ مَلاَ الإلهُ قُلُوبَهُم بِودَادِهِ وَمَحَبَّةِ الرَّحمَنِ

المقام السادس من مقامات السائرين إلى الله: أن تمتلئ قلوبهم بحب الله تعالى حبًا يدفعهم؛ للتقرب إليه بكل ما يحب ويرضى، والبعد عن كل ما يسخط ويأبى.

- وقد وصف الله عباده المؤمنين بعلامات الإيمان الصادق فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }.(١٨)
- وجمعها النبي ﷺ في ثلاث، فقال: " ثلاثٌ من كن فيه وجد حلاوة الإيمان وطعمه: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب في الله ويبغض في الله، وأن توقد نار عظيمة فيقع فيها أحب إليه من أن يشرك بالله شيئًا"، رواه النسائي بسند صحيح،(١٩) فلا بدّ من تحقق ولاءات وبراءات من جراء هذه المحبة الصادقة .
- قال ابن تيمية رحمه الله: " فالمحبة تلقي العبد في السير إلى معبوده، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده".(٢٠)

وأسباب محبة الله كثيرة، ذكر منها ابن القيم رحمه الله عشرة أسباب، نذكر منها أمرين:

الأول: أن يتفكر في عظيم صفات الله، وفي جليل برّه وإحسانه؛ فإن الإنسان لا يحب أحدًا من الناس إلا بأحد أمرين: إما لأنه أحسن إليه، وإما لما فيه من الصفات التي تستحق الإجلال والمحبة، والله هو المتفرد بالاتصاف بكمال الصفات الحسنى سبحانه، وهو المتفرد باستقلال الإنعام على عباده.

---

(١٧) أخرجه البخاري، (٣١/٨)، ومسلم، (٩٠/٧) .
(١٨) سورة المائدة/٥٤ .
(١٩) أخرجه في سننه، (٩٤/٨) .
(٢٠) مجموع الفتاوى، (٩٥/١) .

والثاني: موافقة المحبوب فيما يحبه ويرضاه، وبغض ما يبغضه ويسخطه، فيحب الأعمال الصالحة، ويوالي أهلها بقدر محبة الله لهم، ويبغض ما يبغضه الله، ويعادي أهلها بقدر بغض الله لهم، فليست في قلبه محبة ولا عداوة إلا وهي تابعة لمحبة الله وبغضه، قال بعض الصالحين: مفاوز الدنيا تُقطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تُقطع بالقلوب .

٥- وَهُمُ الَّذِينَ أَكثَـرُوا مِن ذِكـرِهِ فَي السِّرِّ والإِعـلاَنِ والأَحيَـانِ

المقام السابع من مقامات السير إلى الله والدار الآخرة: أن يكون لسان العبد رطبًا بذكر الله تعالى لاهجًا به، فمن أحب شيئًا أكثر من ذكره.

- قال تعالى: {وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}.(٢١)
- وأوصى النبي ﷺ رجلاً، فقال: "لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله"، رواه أحمد وغيره.(٢٢)
- وقال ابن مسعود رضي الله عنه: اطلب قلبك في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وفي مجالس الذكر، وفي أوقات الخلوة؛ فإن لم تجده في هذه المواطن فسل الله أن يمنّ عليك بقلب؛ فإنه لا قلب لك .
- ومن عوّد لسانه ذكر الله صان لسانه عن الباطل واللغو، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله للذكر أكثر من سبعين فائدة في كتابه الوابل الصيب،(٢٣) وما أجمل كلامه لما قال: "في القلب خلة وفاقة لا يسدَّها شيء ألبتة إلا ذكر الله عز وجل" .(٢٤)

وإنما يكون العبد من الذاكرين لله تعالى كثيرًا بأمرين:

الأول: أن يحرص على الأذكار التي شرعها رسول الله ﷺ في محالها؛ كذكر النوم، وإجابة المؤذن، ورؤية المبتلى، ونحوها، وقد أجاب بنحو من هذا ابن الصلاح رحمه الله .

والثاني: أن يُكثر من ذكر الله تعالى في كل أحواله قائمًا، وقاعدًا، وعلى جنبه، في سره وإعلانه، وكل أحيانه، وأن يواطئ قلبه لسانه حال الذكر، قال ابن حجر رحمه الله: "الذكر الكامل: هو ما يجتمع فيه ذكر اللسان والقلب بالتفكر في المعنى، واستحضار عظمة الله

---

(٢١) سورة الجمعة/١٠ .

(٢٢) أخرجه أحمد، (١٨٨/٤)، والترمذي، (٤٥٨/٥)، وابن ماجه، (٧٠٧/٤) .

(٢٣) يراجع ص(٦١-١١١) .

(٢٤) الوابل الصيب، ص(٩١) .

تعالى"،[٢٥] ويقول ابن القيم رحمه الله: "وأفضل الذكر وأنفعه: ما واطأ فيه القلب اللسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده " .[٢٦]

٦- يتقــرَبُونَ إلى المَلِيــكِ بفِعــلِهم طَاعَــاتِهِ والتَــركِ لِلعــصــيَانِ

المقام الثامن: التقرب لله تعالى بفعل الطاعة وترك المعصية، وهو حقيقة التقوى، وأصل العبــادة، وسر السعادة.

- يقول تعالى في وصف عباده المؤمنين: {أُولَــئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِــيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً}.[٢٧]
- وفي حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًا فقد آذنتــه بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إلى مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقــرب إليّ بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، وإن استعاذني لأعيذنــه، ومــا ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن يكره الموت، وأنا أكره مساءته"، رواه البخاري.[٢٨]

والمسارعة إلى الخيرات، ومفارقة المنكرات تحصل بأصلين عظيمين :

الأول: أن تعرف الطاعة من المعصية، والخير من الشر، وتعرف ما لكلٍ منهما من الأجر أو الوزر؛ فيندبك الخير بما فيه إلى فعله والمداومة عليه، ويدعوك الشر بما فيه لاجتنابه والحــذر منه، قال ابن القيم: "ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها، ويحبها، ويؤثرها؛ حتى يرســل الله سبحانه برحمته عليه الملائكة تأزه إليها أزًا، وتحرضه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها، ولا يزال يألف المعاصي ويحبها، ويؤثرها؛ حتى يرسل الله إليه الشياطين فتأزه إليها أزًا" .[٢٩]

---

(٢٥) فتح الباري، (٢١٠/١١) .
(٢٦) الفوائد، ص(١٩٢) .
(٢٧) سورة الإسراء/٥٧ .
(٢٨) (١٣١/٨) .
(٢٩) الجواب الكافي، ص(٥٧) .

والثاني: أن تجمع بين يدي قلبك أصول الخير؛ فتسلكها، وأصول الشر فتحذرها، يقول ابن القيم رحمه الله: "الأصول التي انبنى عليها سعادة العبد ثلاثة، ولكل واحد منها ضدّ، فمن فقد ذلك الأصل حصل على ضده: التوحيد وضده الشرك، والسنة وضدها البدعة، والطاعة وضدها المعصية، ولهذه الثلاثة ضدّ واحد وهو خلو القلب من الرغبة في الله وفيما عنده، ومن الرهبة منه ومما عنده". (٣٠)

واعلم أن لله على العبد في كل وقت من أوقاته عبودية تقربه منه؛ فإن شغل وقته بعبودية الوقت تقدم إلى ربه، وإن شغله بهوى أو راحة وبطالة تأخر، قال تعالى: (لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) . (٣١)

٧- فِعلُ الفَرَائِضِ وَالنَّوافِلِ دَأْبُهُم مَعَ رُؤيَةِ التَّقصِيرِ وَالنُّقصَانِ

المقام التاسع من منازل السير إلى الله: أن يداوم العبد على فعل الفرائض التي هي أقرب ما يقربه من الله، ويواظب على فعل النوافل التي فيها زيادة القرب من الله؛ فيكون هذا ديدنه ودينه مع استشعار تقصيره وتفريطه، وافتقاره إلى عون معبوده وتوفيقه .

والفقر الحقيقي: دوام الافتقار إلى الله في كل حال، وأن يشهد العبد في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة إلى الله تعالى من كل وجه.

- وقد كان من دعاء موسى عليه السلام: {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} .(٣٢)
- ومن دعاء نبينا محمد ﷺ: "اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت"، رواه أبو داود.(٣٣)

(٣٠) المصدر السابق، (١٠٨) .
(٣١) سورة المدثر/٣٧ .
(٣٢) سورة القصص/٢٤ .
(٣٣) (٤٨٤/٤) .

ومن أكبر ما يعين العبد على مقام الافتقار ورؤية التقصير في عمله أمران:

الأول: النظر في نعم الله وإحسانه عليه، وأنه ما من صالحة يتقرب بها العبد إلى الله إلا هي من فضل الله عليه وتوفيقه له؛ فيظل شاكرًا لله، حامدًا له .

والثاني: تفكره في مواطن الخلل في عباداته وآفاتها، وتقصيره في أدائها على الوجه الأكمل؛ فيظل معترفًا بالنقص والتقصير، ذامًا لنفسه، محتقرًا لها في جنب الله .

يقول ابن القيم رحمه الله: " ونكتة المسألة وسرّها: أنه لا يرى ربه إلا محسنًا، ولا يرى نفسه إلا مسيئًا أو مفرطًا أو مقصرًا؛ فيرى كل ما يسره من فضل ربه عليه وإحسانه إليه، وكل ما يسوءه من ذنوبه وعدل الله فيه" .[٣٤]

٨- صَبَرُوا النَّفُوسَ عَلَى المَكَارِهِ كُلِّهَا شَوقًا إِلى مَا فِيهِ مِن إحسَانِ

المقام العاشر: هو مقام الصبر على ما تكره النفوس؛ وإنما تكره النفوس ما لا يلائمها، والصبر على المكاره هو حبس النفس عن كل ما لا يرضي الله.

- وقد ذكر عز وجل أهل هذه الرتبة العظيمة فقال: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ}.[٣٥]
- وعن أنس مرفوعًا: "لا يجد عبدٌ حلاوة الإيمان؛ حتى يعلم أن ما أصابه ما كان ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه"، أخرجه ابن أبي عاصم،[٣٦] وصححه الألباني.[٣٧]

وأعظم الصبر هو الصبر الجميل، قال ابن تيمية رحمه الله: " الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه ولا معه"،[٣٨] ومن المعيّنات للعبد على مقام الصبر أمران:

الأول: أن يتذكر ما في الصبر من الأجر الذي لا يُعدّ؛ مشتاقًا لفضل الله وثوابه، وقد روى أهل السير والتراجم أن امرأة قطعت إصبعها، فضحكت، فلما سئلت عن سبب ذلك، قالت: حلاوة أجرها أنستني مرارة فقدها .

---

(٣٤) الفوائد، ص(٣٣) .
(٣٥) سورة الزمر/١٠ .
(٣٦) في السنة، (١١٠/١) .
(٣٧) ظلال الجنة، (٩٣/١) .
(٣٨) نقله ابن القيم في مدارج السالكين، (١٦٠/٢) .

الثاني: أن يتفكر فيما أنعم الله به عليه، وتفضل عليه من عظيم الآلاء والإحسان، فكم لله عليه من نعمة باقية؛ فيحمد الله على ما بقي ويصبر على ما أخذ، وذاك الرجل الصالح عروة بن الزبير رحمه الله لما قطعت يده، ومات ولده في يوم واحد، قال: اللهم لك الحمد أعطيتني أربعة أطراف؛ فأخذت واحدًا، وأبقيت ثلاثة فلك الحمد، وأعطيتني أربعة أبناء؛ فأخذت واحدًا، وأبقيت ثلاثة فلك الحمد، وهذه هي الدرجة الأولى من درجات العبودية عند وقوع المكاره، وأما الدرجة الثانية؛ فهي:

٩- نَزَلُوا بِمَنزِلَةِ الرِّضَا فَهُم بِهَا قَد أَصبَحُوا فِي جَنَّةٍ وَأَمَانِ

المقام الحادي عشر من مقامات السائرين إلى الله: مقام الرضا؛ فيرضى بما قسم الله له، وقدره عليه، فليس في نفس العبد المؤمن إلا الرضا بما دبّره له رب العالمين.

- وفي مثل هذه المنزلة الرفيعة يقول الله سبحانه: {قَالَ اللّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.(٣٩)
- وقال النبي ﷺ:" ذاق طعم الإيمان: من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً"، رواه مسلم.(٤٠)

وإنما يرتقي العبد إلى مقام الرضا بأمرين عظيمين :

الأول: أن يعلم أن ما قدره الله لا مردّ له؛ فلا غالب لأمره، ولا مبدل لحكمه؛ فيسلم ويرضى، وإنما تثبت قدم الإسلام على عتبة التسليم والاستسلام .

والثاني: أن يرى ما في قدر الله من لطف؛ فما من أمرٍ يقدره الله إلا لحكمة بالغة، وفيه من ألطاف الله ما يجعل العبد يرضى بالله ويسلم، وبذا ينال العبد رتبة اليقين، ومن ضعف اليقين: أن ترُضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله، فإن رزق الله لا يجرّه حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره، وهذه هي المرتبة الثانية من درجات العبودية عند وقوع المكاره، وأما الدرجة الثالثة؛ فهي:

---

(٣٩) سورة المائدة/١١٩ .

(٤٠) في صحيحه (٤٦/١) .

١٠- شَكَرُوا الَّذِي أَولَى الخَلَائِقَ فَضلَهُ بِالقَلــبِ وَالأَقــــوَالِ وَالأَركَــانِ

المقام الثاني عشر: مقام الشكر، والإيمان نصف صبر، ونصف شكر، قال ابن القيم رحمه الله: "ولا يتم الإيمان إلا بالصبر والشكر؛ فإن رأس الشكر التوحيد، ورأس الصــبر تــرك إجابــة داعــي الهوى".(٤١)

- وفي مقام الشكر يقول سبحانه: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}.(٤٢)
- ويقول النبي ﷺ: " المؤمن بخير على كل حال؛ تنزع نفسه من بين جنبيه وهو يحمد الله عز وجل"، رواه النسائي.(٤٣)

والشكر رتبة عظيمة من رتب السائرين إلى الله، وشكر الله يتوجه في حالين:

الأولى: حال النعمة؛ فيحمد الله على نعمه التي لا تحصى، وشكر الله على نعمه: شكرٌ بالقلب بالفرح والاستبشار بفضله، وشكرٌ باللسان بالثناء الجميل عليه سبحانه، وشــكرٌ بــالجوارح بتسخير النعم في مراضي الله تعالى .

والثانية: حال الضراء، وهي مرتبة من مراتب الأصفياء الأولياء، فيشكر الله تعالى على ما قــدره عليه من خير أو شر، وهذا ابن المنكدر رحمه الله - وقد قال له رجل: إني أرثي لك من هــذه القرحة التي برجلك -، فقال: "لكني أحمد الله منذ يوم خرجت على أربع: أحمد الله على أنها لم تكن أكبر من هذه، وأحمد الله تعالى على أنها لم تخرج في عيني، وأحمد الله تعالى على أنها لم تكن في ديني، وأحمد الله تعالى على أن رزقني حمده وشكره"، فلله الفضل والمنة أولاً وآخــرًا، ومن استشعر في مصائبه هذه الأربع وجد مرتبة الشكر عند المكاره .

١١- صَحِبُوا التَّوَكُّلَ فِي جمِيعِ أُمُورِهِم مَع بّــذلِ جَــهدٍ فِي رِضَا الرَّحمَنِ

المقام الثالث عشر من مقامات السعداء: التوكل على الله في جميع الأمور، فالتوكل أعظم منازل (إياك نعبد وإياك نستعين) فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله.

---

(٤١) الفوائد، ص(١٣١) .

(٤٢) سورة سبأ/١٣ .

(٤٣) في سننه، (١٢/٤) .

والتوكل: هو تفويض الأمر لله تعالى، بعد بذل الجهد في القيام بالأسباب المشروعة؛ فيعتمد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار، ولا يلتفت إلى المخلوقين ولا يتعلق بالأسباب، فالمتوكل لا يسأل غير الله، ولا يعترض على أمرٍ قضاه الله، ولا يبخل بشيءٍ فيه رضا الله.

- وقد قال تعالى في أمثال هؤلاء: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}.(٤٤)
- وهؤلاء هم الذين مدحهم الرسول ﷺ - بل خصّهم بكونهم يدخلون الجنة بغير حساب - فقال عنهم: "هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون"، متفق عليه.(٤٥)

وبين العبد وبين القيام بمقام التوكل درجتان :

الأولى: تفويض الأمر لله تعالى، قال ابن القيم رحمه الله: "والتوكل معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله، وحسن اختياره لعبده، وثقته به، ورضاه بما يفعله به، ويختاره له"،(٤٦) وقال أبو إسماعيل الأنصاري رحمه الله: "التوكل هو كلة الأمر إلى مالكه، والتعويل على وكالته".(٤٧)

ولا يكون ذلك إلا باستشعار آثار ربوبية الله تعالى في ملكوته، فكلما كان العبد أكثر تأملاً في ملكوت الله وكفايته لأوليائه الصالحين كلما عظم توكله على خالقه، وقد قيل لحاتم الأصم رحمه الله: علام بنيت أمرك هذا من التوكل؟ قال: على أربع خلال: علمت أن رزقي لا يأكله غيري، فلست أهتم به، وعلمت أن عملي لا يعمله غيري، فأنا مشغول به، وعلمت أن الموت يأتيني بغتة، فأنا أبادره، وعلمت أني بعين الله في كل حال، فأنا مستحٍ منه .

والثاني: عدم رؤية السبب بعد عمله، فالوقوف مع الأسباب صحيح من جهة القيام بها، وفاسد من جهة الاعتماد عليها أو الوقوف عندها، فكن كما قال النبي ﷺ: "احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز".(٤٨)

١٢- عَبَدُوا الإِلَهَ عَلَى اعتِقَادِ حُضُورِهِ فَتَبَوَّءوا فِي مَنزِلِ الإِحسَانِ

---

(٤٤) سورة الأنفال/٢ .
(٤٥) أخرجه البخاري (١٧٤/٧)، ومسلم، (١٣٧/١) .
(٤٦) الفوائد، ص(٧٠) .
(٤٧) مدارج السالكين، (١٢٦/٢) .
(٤٨) أخرجه مسلم، (٥٦/٨) .

المقام الرابع عشر: مقام الإحسان، والإحسان مرتبة عظيمة من مراتب الدين، وأجمل ما يُعرّف به ما فسّره نبينا ﷺ إذ قال – وقد سئل عن الإحسان –: " أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"، رواه مسلم.(٤٩)

- قال تعالى عن المحسنين: {إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ}.(٥٠)

وللإحسان مرتبتان:

أعلاهما: مرتبة الاستحضار: أن تعبد الله كأنك تراه، وإنما يحصل ذلك بمطالعة ما اتصف به الرب سبحانه من صفات الكمال ونعوت الجلال.(٥١)

المرتبة الثانية: مرتبة الإطلاع: فإن لم تكن تراه فإنه يراك، فيأتي على قلبه بالمشارطة، ثم المجاهدة، ثم المراقبة، ثم المحاسبة، ثم المعاتبة حتى تزكو له نفسه، قال النبي ﷺ :" ثلاث من فعلهن فقد طعِم طعم الإيمان: من عبد الله وحده وأنه لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه رافدة عليه كل عام، ولا يعطي الهرمة ولا الدرنة ولا المريضة ولا الشرط اللئيمة، ولكن من وسط أموالكم؛ فإن الله لم يسألكم خيره و لم يأمركم بشره، وزكى نفسه"، فقال رجل: وما تزكية النفس ؟ فقال: " أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان" .(٥٢)

١٣– نَصَحُوا الخَلِيقَةَ فِي رِضَا مَحبُوبِهِم بِالعِلمِ وَالإِرشَادِ وَالإِحسَانِ

المقام الخامس عشر: مقام النصيحة للخلق في رضا الرب سبحانه، والنصيحة هي حيازة الخير للغير.

- وقد وصف الله بها أنبيائه ورسله، فهذا نوح عليه السلام؛ أول رسل الله يقول لقومه: {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}.(٥٣)

---

(٤٩) سورة الأنفال/٢ .

(٥٠) سورة النحل/١٢٨ .

(٥١) مدارج السالكين، لابن القيم، (٣/٢٢١-٢٢٢) .

(٥٢) ينظر: السلسلة الصحيحة، للألباني، (٣/١٢٠) .

(٥٣) سورة الأعراف/٦٢ .

- وعن جرير رضي الله عنه قال: بايعتُ رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم، رواه البخاري ومسلم.(٥٤)

وإذا أراد العبد أن يتمثل مقام النصيحة فليسلك هذين الأمرين:

الأول: أن يُعلّم الناس ويرشدهم إلى ما ينفعهم من أمور دينهم ودنياهم، وأحبّ العباد لله أنصحهم لخلقه، فيخطب أو يكتب أو يُدرِس أو يُعلِم ابتغاء رضا الله في نصيحة خلقه، وقد قال ﷺ: " الدين النصيحة"، ثلاثًا قلنا: لمن ؟ قال: "لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم"، رواه مسلم.(٥٥)

والثاني: أن يحسن إليهم بخُلقه، وماله، وجاهه، ووقته، وقوته، فيعينهم على فعل الطاعات، وييسر أسبابها لهم، ويأخذ بأيديهم عن المنكرات، ويبعد ذرائعها عنهم، وهذه السعادة في معاملة الناس، قال ابن تيمية رحمه الله: "والسعادة في معاملة الخلق: أن تعاملهم لله؛ فترجو الله فيهم ولا ترجوهم في الله، وتخافه فيهم ولا تخافهم في الله، وتحسن إليهم رجاء ثواب الله لا لمكافئتهم، وتكف عن ظلمهم خوفًا من الله لا منهم "،(٥٦) وهذا أحسن ما يكون في مصاحبة الناس، وهو المقام السادس عشر :

١٤- صَحِبُوا الخَلاَئِقَ بِالجُسُومِ وَإِنَّمَا أَروَاحُهُم فِي مَنزِلٍ فَوقَانِي

المقام الذي يليه: مصاحبة الناس فيما ينفع واعتزالهم فيما لا يفيد؛ فيسلك معهم وبهم ما يقربه وإياهم إلى الله تعالى.

- قال تعالى عن نبيه موسى عليه السلام: {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً }.(٥٧)
- ويوصينا رسولنا ﷺ فيقول:" لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي"، رواه أبو داود.(٥٨)

---

(٥٤) أخرجه البخاري، (١٣٩/١)، ومسلم، (٥٤/١) .
(٥٥) أخرجه مسلم، (٥٣/١) .
(٥٦) مجموع الفتاوى، (٥١/١) .
(٥٧) سورة الكهف/٦٦ .
(٥٨) أخرجه أبو داود، (٤٠٧/٤)، والترمذي، (٦٠٠/٤) .

والواجب في هذا الباب معرفتان:

الأولى: أن تعلم أن مخالطة الناس على أقسام: الأول: من مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه في اليوم والليلة، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة، ثم إذا احتاج إليه خالطه، وهم العلماء بالله تعالى وأمره، الناصحون لله تعالى ولكتابه ولرسوله ولخلقه، والثاني: من مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض، فما دمت صحيحًا فلا حاجة لك في خلطته، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش، وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات ونحوها، القسم الثالث: وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه، فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن؛ وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا، ومنهم من مخالطته كوجع الضرس أو حمى البدن، وأما القسم الرابع: من مخالطته الهلاك كله، ومخالطته بمنزلة أكل السمّ، وهم أهل البدع والضلالة، الصادون عن سنة رسول الله الداعون إلى خلافها.(٥٩)

والثاني: أن تعلم أن " الاجتماع بالإخوان قسمان: أحدهما اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت، الثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر، فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، ولكن فيه ثلاث آفات: أحداها: تزين بعضهم لبعض، الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة، الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة، ينقطع بها عن المقصود".(٦٠)

١٥- بِاللهِ دَعَــوَاتُ الخَــلاَئِــقِ كُلِّهَا خَوفًــا عَلَى الإِيمَــانِ مِن نُقصَــانِ

المقام السابع عشر: مقام الدعاء، وهو طلب الحاجات من رب الأرض والسماوات سبحانه.

فتنطرح بين يدي الله وتسال الله تعالى من فضله؛ فإن الفضل كل الفضل بيد الله، وليس بينك وبين الله إلا أن تسأله مما في يديه فيعطيك، والله يقلب عبده بين السراء والضراء؛ ليستخرج منه مكنون التضرع والدعاء.

(٥٩) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (٢/٤٩٨-٤٩٩) .

(٦٠) المصدر السابق، ص(٥١) .

- وقد قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ }.(٦١)
- وقال النبي ﷺ:" الدعاء هو العبادة"، رواه أحمد.(٦٢)
- إذا تقرر ذلك فاعلم أن أفضل الدعاء ما بيّنه ابن القيم رحمه الله بقوله: "إذا اجتمع عليه قلبه، وصدقت ضرورته وفاقته، وقوي رجاؤه فلا يكاد يردّ دعاؤه".(٦٣)

ويتأكد الدعاء من العبد في موضعين:

الأول: موضع سؤال الله حاجات الدنيا، من رزق وعافية وولد، وأعظم منه سؤال الله حاجات الدين؛ من هداية ومغفرة؛ فيستحضر أمله في الله؛ خوفًا من النفاق وسوء الختام، وشوقًا إلى درجات الجنان ولقاء الرحمن؛ فيعظم دعاؤه وتعظم مناجاته .

الثاني: موضع الضراء والكرب، إذا ضاق الأمر وعظم الخطب، وتولى الصاحب وبارت الحيل، وأجمل منه دعاء الله حال السراء، قال النبي ﷺ: "من سرّه أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب؛ فليكثر الدعاء في الرخاء"، رواه الترمذي.(٦٤)

١٦- عَزَفُوا القُلُوبَ عَنِ الشَّواغِلِ كُلِّهَا قَد فرَّغُوهَا مِن سِوَى الرَّحمَنِ

المقام الثامن عشر: الإنابة إلى الله وحده، والمنيب إلى الله: هو من أقبل على الله بكليته، وأعرض عما سواه.

- قال تعالى في وصف أهل جنته: {مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ}،(٦٥) قال ابن عباس رضي الله عنه في معنى (منيب): "راجعٌ عن معاصي الله، مقبلٌ على طاعة الله".

---

(٦١) سورة البقرة/١٨٦ .

(٦٢) أخرجه أحمد، (٢٦٧/٤)، وأبو داود، (٥٥١/١)، والترمذي، (٢١١/٥)، وابن ماجه، (٥/٥) .

(٦٣) الفوائد، ص(٤٧) .

(٦٤) في جامعه، (٤٦٢/٥) .

(٦٥) سورة ق/٣٣ .

- وهذا رسولنا ﷺ يعلم البراء رضي الله عنه إذا أوى إلى فراشه أن يقول: "اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت"، متفق عليه.(٦٦)

والإنابة عبادة قلبية عظيمة اختصّ الله بها عباده المتقين، وحقيقة الإنابة تتمثل في شيئين:

(٦٦) أخرجه البخاري، (٧١/١)، ومسلم، (٧٧/٨) .

الأول: أن حقيقة الإنابة: عكوف القلب على طاعة الله، ومحبته، والإقبال عليه، فهي عكوفٌ من القلب على الله عز وجل كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه، وحقيقة ذلك عكوف القلب على محبته وذكره بالإجلال والتعظيم، وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله ﷺ.

واعلم أن القلب إن لم يسجد لله سجد لغيره، ومن لم يعكف قلبه على الله وحده عكف على التماثيل المتنوعة، فتعلق القلب بغير الله، واشتغاله به، والركون إليه عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام .

والثاني: أن يقطع العبد كل ما يشغله عن سيره إلى الله تعالى والدار الآخرة، وأصل ذلك ترك الفضول التي تشغل عن المقصود من الطعام والشراب والمنام والخلطة؛ فيأخذ من ذلك ما يعينه على طلبه، ويرفض منه ما يقطعه عنه أو يضعف طلبه . (٦٧)

ثم اعلم أنه إنما يجد المشقة في ترك المألوفات والعوائد من تركها لغير الله، فأما من تركها صادقًا مخلصًا من قلبه لله؛ فإنه لا يجد في تركها مشقة إلا في أول وهلة؛ ليُمتحن أصادق هو في تركها أم كاذب؛ فإن صبر على تلك المشقة قليلاً استحالت لذة .

١٧- حَرَكَاتُهُم وَهُمُومُهُم وَعُزُومُهُم لله لاَ لِلخَلقِ وَالشَّيطَانِ

المقام التاسع عشر: أن تتوجه الحركات واللفظات والإرادات إلى لله تعالى، وما يقرّب إليه.

- وقد مدح الله بذلك خليله إبراهيم فقال: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}،(٦٨) والحنيف المقبل على الله، المعرض عما سواه.
- وروي عن نبينا ﷺ أنه قال: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به"، قال النووي في أربعينه: "حديث صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح".(٦٩)

وإنما يحصل هذا بأمرين جليلين :

(٦٧) الفوائد، ص(١٤٤-١٤٥) .
(٦٨) سورة النحل/١٢٠ .
(٦٩) عند الحديث الحادي والأربعين .

أولهما: أن ينصرف عن حب ثناء الخلق، أو الاستدراج مع خطوات الشيطان؛ ليتوحد طريق السير إلى الله والدار الآخرة؛ فيعلم أنهما عدوان له؛ فيأخذ الأهبة للدفاع عن إيمانه، وثباته في سيره إلى هدفه .

والثاني: أن يصلح الأفكار والخواطر، فإن " مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار؛ فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإيرادات، والإيرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة؛ فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها"، ثم يواصل ابن القيم فيقول: "ومن المعلوم أن إصلاح الخواطر أسهل من إصلاح الأفكار، وإصلاح الأفكار أسهل من إصلاح الإرادات، وإصلاح الإرادات أسهل من تدارك فساد العمل، وتداركه أسهل من قطع العوائد؛ فأنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيك دون ما لا يعنيك، فالفكر فيما لا يعني باب كل شر، ومن فكر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه ".[٧٠]

١٨- نِعمَ الرَفِيقُ لِطَالِبِ السُّبلِ التِي تُفضِي إِلَى الخَيرَاتِ وَالإِحسَانِ

المقام العشرون: المداومة على هذه المقامات العلية، ومجاهدة النفس في الثبات عليها؛ فإن للنفس إقبال وإدبار، وهمة وفتور، والسعيد من كانت خاتمته السعادة.

- قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}.[٧١]
- وقال تعالى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}.[٧٢]
- وقال النبي ﷺ: "وإنما الأعمال بالخواتيم"، أخرجه البخاري.[٧٣]

وهذه المقامات التي أرشد إليها الناظم رحمه الله خير دليل لطريق الحق، وأرشد سبيل لرضا لرب الخلق، وهي تهدي السالك عليها إلى أمرين :

الأول: إلى سائر الخيرات مما يحبه الله تعالى؛ من توحيد، وسنة، وطاعة، وحسن خلق.

والثاني: أنها تهدي العبد للإحسان في جانب عبادة الله، والإحسان فيها: هو كمال القيام

---

(٧٠) الفوائد، ص(١٧٣-١٧٥) .

(٧١) سورة العنكبوت/٦٩ .

(٧٢) سورة محمد/١٧ .

(٧٣) في صحيحه، (١٥٥/٨) .

بالعبادات الظاهرة والباطنة، وإلى الإحسان في جانب حقوق الخلق، والإحسان فيها: ببذل المعروف ونشره، وكف الأذى ومنعه .

فالله نسأل أن يهدينا رشدنا، وأن يلهمنا ما يحب ويرضى، ويلزمنا كلمة التقوى، ويثبتنا على العروة الوثقى، وأن يحرّم أجسادنا على النار؛ فإن أجسادنا على النار لا تقوى؛ إنه أهل المغفرة وأهل التقوى، سميع النجوى، وصلى الله وسلم على خير خلقه وختام رسله؛ نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تم هذا الشرح

عصر يوم الثلاثاء ٢٩ من شعبان ١٤٢٨هـ،